إسهامات الشيخ محمد القباطي في الحركة الإصلاحية بسيدي بلعباس 1942–1954

Sheikh Muhammed Al-quabbati's contributions to Muslim reformism at Sidi Bel Abbés 1942-1954

الدكتور/ بلجة عبد القادر
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة سيدي بلعباس – الجزائر
beldjaabdelkader68@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021-01-06 تاريخ القبول: 2021-01-10 تاريخ النشر: 2021-01-26

Abstract:

Through this study, we are dealing with a figure of the reform movement in western Algeria in general, and in the Sidi Bel Abbas region in particular, it concerns Sheikh Mohamed Al-Qubati, who fought for the national issue since the early years's activity of Algerian Muslim Scholars Association (OULEMAS) with his father, then his joining the ranks of the national movement during the Second Wrold War, all the way to the liberation revolution and independence.

Keywords : Reformism Muslim-sidi bel abbés-Muhammed al-quabbati- struggle- Occupation- notables

ملخص

نتطرق من خلال هذه الدراسة لإحدى شخصيات الحركة الإصلاحية في الغرب الجزائري عامة، وفي منطقة سيدي بلعباس خاصة، يتعلق الأمر بالشيخ محمد القباطي الذي ناضل من أجل القضية الوطنية منذ السنوات الأولى لنشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين رفقة والده،

متنقلا عبر مدن عديدة، إلى أن استقر بمدينة سيدي بلعباس في مطلع الخمسينات من القرن الماضي، حيث عمل بها مدرسا ومرشدا، فكان له دورا بارزا في الحركة الإصلاحية في المنطقة.

الكلمات المفتاحية: سيدي بلعباس- محمد القباطي – الحركة الإصلاحية- النضال الوطني – السياسة الاستعمارية – الأعيان

مقدمة:

يعد البحث في أعلام المدن والبلدان بمثابة البحث في صميم الذاكرة الجماعية لربط الماضي بالحاضر.

إن البحث والتنقيب في سير الأعلام وأعمالهم العلمية، بات اليوم أولوية من الأولويات قصد مواجهة روح التملص، والسخط على الماضي وعلى التاريخ من جهة، ومن أجل الحفاظ على معالم هويتنا وأصولنا، والانتصار لمقوماتنا التاريخية والفكرية من جهة أخرى.

ولعل هذا الرهان المعاصر، كان هو نفس الرهان الذي رفعه نخبة من العلماء والمثقفين الجزائريين في زمن الاحتلال الفرنسي، أين كان العدو مجاهرا بعداوته، ومناديا بسياسته الرامية إلى استئصال الجذور، والقضاء على الأصول، فكان ذلك لهم سببا وجيها في تشكيل اتجاه فكري واع يتبنى مبدأ الإصلاح، ويتمسك بالأبعاد الحضارية للمجتمع الجزائري عن طريق تحريك الوعي الوطني الذي ووقف موقفا حازما من سياسة فرنسا الاستعمارية، ومن الشخصيات البارزة على المستوى المحلي والتي أدت دورا هاما فيما يخص نشر التعليم العربي نذكر الشيخ محمد القباطي .

1– المولد والنشأة

هو محمد بن محمد ولد البشير القبّاطي من مواليد19ديسمبر1907 بقرية أولاد زيري في ضواحي نيمورNemours (الغزوات)، تميز منذ صغره بسعة نباهته، فظهرت عليه من أول وهلة غزارة علمه وتجلت فيه قوة الإرادة، كما عرف بالصرامة،حفظ القرآن الكريم على يد والده [1]، ثم أخذ مبادئ اللغة العربية والفقه في نهاية المرحلة الأولى إلى أن التحق بجامعة القرويين بالمغرب الأقصى طالبا للعلم ومنها تحصل على شهادة التأهيل في سنة 1938 [2].

وبعد تخرجه اقبل عائدا إلى المنطقة بعدما روى نفسه من مناهل العلم، فعين معلما لدى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حيث قدم للناشئة وللأجيال الجديدة حينها زاده الفكري والعلمي، وأضاء لها درب المعرفة، ومنحها غذاء الروح ومتعة العقل، وعن بداية مشواره التعليمي قال الشيخ **محمد القبّاطي**:" ***انتقلت إلى الطور الثالث من حياتي وتلقيت وظيفة متواضعة، ظننت أنني سأفتح بها بابا للسعادة تنسيني ما مر بي في أيام التأديب والتخويف والتهديد، وما إن اطمأنت نفسي بهذه الآمال التي انفتح لها صدري حتى دق جرس الحرب العالمية الثانية فانعكست الأمور...***"[3]، وعلى الرغم من هذه المعاناة، إلا أن ذلك لم يثن من عزيمته وإصراره على المقاومة.

ينتمي محمد القبّاطي إلى عائلة مكونة من أربعة إخوة (**محمد الصغير–عبد الحميد–بوزيان –بن سليمان–بن عمر**) وأربع أخوات (**ربيعة – خيرة–يامنة–خديجة**)، كما تشير المصادر إلى أن الإطار العائلي لشيخ **القباطي محمد** إلى أفراد من أبناء العمومة الذين اتصفوا بمناهضة الاستعمار مثلما هو الشأن بالنسبة لابني عمه **احمد ولد احمد** الناشط في الحزب

الشيوعي، **ومحمد ولد احمد** المناضل في صفوف حزب الشعب الجزائري[4]، وهو ما جعل عائلة القبّاطي محل متابعة من طرف السلطات الاستعمارية.

2– ظهور الحركة الإصلاحية في سيدي بلعباس:

لقد تزامنت احتفالات الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، إذ كانت مناسبة عظيمة بالنسبة لإدارة الاحتلال من خلالها عبر الفرنسيون عن فرحتهم التي دامت سنة كاملة رافقتها استفزازات وطنية ودينية مست الجزائريين في صميم كرامتهم، مما دفع بهم إلى تكتلات سياسية وثقافية، فأثمرت جهود العلماء في هذا المسعى إلى تأسيس تنظيم لتأطير نشاطهم الإصلاحي.

وعلى غرار مناطق الشرق الجزائري، شهدت مدن الجهة الغربية جوا ثقافيا وسياسيا نتيجة حركة النهضة الشاملة التي عرفتها الجزائر بعد مرور الذكرى المئوية للاحتلال، حيث بدأ الفكر الإصلاحي يتغلغل إلى ربوع القطاع الوهراني بعد زيارتين قام بهما الشيخ **عبد الحميد بن باديس** خلال سنتي 1931-1932، ولئن سعت الزيارة الأولى إلى نشر الفكر الإصلاحي بواسطة التعريف بالجمعية واطلاع المؤسسات الدينية والثقافية والرأي العام في الغرب الجزائري على نتائج اجتماع 05 ماي 1931 بنادي الترقي، فان الزيارة الثانية قد شملت كل من معسكر، سعيدة، وهران، سيدي بلعباس، تلمسان ومغنية وكانت هذه الزيارة تسعى إلى تفسير الخلاف الذي حصل بين الإصلاحيين ورجال الزوايا في سنة 1932 والذي على إثره انفصل بعض الطرقيين[5].

وفي تقريره بخصوص هذه الزيارة ذكر الشيخ **عبد الحميد بن باديس** برنامج جولاته، فأول مكان يزوره هو المسجد ليبين للناس أهميته في مدينتهم او قريتهم، ومنه كان يزور ممثل إدارة الاحتلال، وبعد ذلك يلقي درسا في المسجد[6].

ومن خلال هذه الزيارات سعت الجمعية إلى تحقيق الأهداف التالية:

-نشر التعاليم الإصلاحية في الأوساط الاجتماعية الجزائرية خاصة في المناطق الداخلية مثل معسكر وسيدي بلعباس ومغنية.

-كسب تأييد بعض شيوخ الزوايا مثل الزاوية **الهبرية** في تلمسان وزاوية **بن عمر** بأولاد زيري[7].

-التركيز على تلمسان كقطب ثالث للجمعية بعد قسنطينة والجزائر العاصمة لنشر الفكر الإصلاحي وذلك لاعتبارات حضارية وثقافية، ولهذا عين الشيخ **محمد البشير الابراهيمي** ممثلا للجمعية في المنطقة، ولعل بناء دار الحديث يعتبر أهم انجاز حققه التيار الإصلاحي في الغرب الجزائري بمساهمة أعيان تلمسان، حيث قدرت تكلفة المشروع ب نصف مليون فرنك، ولقد اكتسى يوم افتتاح دار الحديث يوم 28سبتمبر 1937 طابعا إصلاحيا ووطنيا خاصا بحضور جمع غفير يتقدمهم رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشيخ **عبدالحميد بن باديس**[8].

وعلى هذا الأساس بدأ الفكر الإصلاحي يتغلغل في المنطقة، إذ تجلى ذلك من خلال فتح المدارس القرآنية ومدارس التعليم العربي وتنظيم دروس الوعظ والإرشاد الديني والنوادي

الثقافية التي عمت كل مدن الجهة الغربية مثل مدينة سيدي بلعباس التي بلغ عدد المدارس المرخص لها بتعليم القرآن الكريم وقاعد اللغة العربية حوالي 57 مدرسة[9].

وسعيا منها لدفع الحركة الإصلاحية نحو الأمام في الغرب الجزائري استندت الجمعية على شخصياتها البارزة، فإلى جانب **الشيخ الابراهيمي** نجد كل من **محمد الشريف الزاهري** في معسكر والشيخ **مصطفى بن حلوش ولد بلقاسم** في سيدي بلعباس الذي خلفا للشيخ **محمد الهادي السنوسي**[10] في سنة 1934 الذي أرسل من طرف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى نوادي التربية في باريس، وبذلك قامت النخبة من مجتمع سيدي بلعباس بفتح أول نادي لها، وهو نادي النجاح[11] لتعليم الصغار والكبار ومطالعة الكتب والمجلات باللغة العربية[12].

وفي خضم هذا الحراك الفكري والثقافي الذي اتسمت به مدينة سيدي بلعباس جاءت فكرة بناء مدرسة التربية والتعليم الحر على غرار مدن الغرب الجزائري التي مستها النهضة الفكرية، وعليه بادر بعض سكان من أعيان المدينة المتعاطفين مع التيار الإصلاحي مثل سي **الغوثي بلامي ،واحمد علال، ومحمد بن طالب**[13] إلى بناء مؤسسة تربوية في سنة 1942 بحي **الأمير عبدالقادر** العتيق بتكلفة قدرها حوالي ثلاث مائة ألف فرنك، واكتمل بناؤها في سنة 1945 ، ولم يتقرر فتحها إلا في يوم 20 أكتوبر 1947 [14]، وقد يعود سبب تأخر الافتتاح إلى أحداث الحرب العالمية الثانية، وما خلفته من مآسي، ودمار على الشعب الجزائري، وأقيم بالمناسبة حفلا بهيجا حضره جمع غفير يتقدمه الشيخ **البشير الإبراهيمي** الذي أم بالمصلين في أول صلاة جمعة بالمدرسة[15].

وهكذا برزت ملامح النهضة الفكرية الوطنية في الغرب الجزائري عامة وفي سيدي بلعباس خاصة.

3– نضال عائلة محمد القباطي ضد الاستعمار الفرنسي:

لقد ذكرنا فيما سبق أن عائلة **القباطي** كانت محل متابعة من طرف السلطات الاستعمارية بسبب النشاط الوطني لأفرادها، **فمحمد ولد البشير** (الوالد) عارض التجنيد في صفوف الجيش الفرنسي عشية الحرب العالمية الأولى، ولذا حكم عليه بالسجن لمدة سنتين، كما عرف كذلك بنشاطه في صفوف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فكان من أبرز ممثليها في منطقة الغزوات، حيث تجلى ذلك من خلال إسهاماته في جريدة البصائر التي نشر فيها قصائد شعرية دعى فيها الشباب إلى شحذ الهمم لتحقيق المبتغى وهو العمل التقدم[16]

ومن بين ما جاء فيها[17]:

أيها الشباب ردوا مجدكم فليوم بد
وابذلوا الروح فداء كي تكونوا كالعباد
دينكم يكره منكم إن تضيعوا ما يعاد
دينكم يكره إن تب قوا كما يبقى الزهاد
دينكم يمقت حقا إن تعيشوا كالجماد
إن بالباب أناسا دأبهم ظلم العباد
ارفعوا الصوت من الأ رض إلى السبع الشداد

وفي نفس العدد لجريدة البصائر نشر والد **محمد القباطي** قصيدة أخرى عنوانها **الفخر بالأصل** وفيها أشاد بخصال بالسلف الصالح ومن بين ما جاء فيها[18]:

ألا قد كان في الأسلاف قبل دأبهم شرف وفضل

مفاخرهم كالشمس تبدو وعزتهم على الأبطال تغلو

لهم دانت رقاب القوم قسرا فباد لعزهم كل وذلوا

لهم أبناء عز خلفوهم على آثارهم لو لم يظلوا

فخير الناس من كأبيه يسعى فكان لمجده يقفز ويعلو

وشر الناس من بأبيه باهى وليس له من الأعمال أصل

لقد صور لنا صاحب القصيدة في هذه الأبيات عهد العز والنخوة والحنين إلى الماضي المجيد الذي كان يعيشه الأسلاف، عكس ما هو الحال عليه في زمانه في ظل الاستعمار الفرنسي الذي يسوده اليأس والحزن.

وبسبب موقفه الرافض للوجود الاستعماري قامت إدارة الاحتلال بتضييق الخناق عليه وعلى أبنائه حيث صدر قرارا بغلق مدرسته القرآنية عشيه قيام الحرب العالمية الثانية، وعن هذه المضايقات يقول الشيخ **محمد القباطي**: " ... ***لقد أخذ الاستعمار الفرنسي يشدد الخناق علينا أنا ووالدي وأخي، ولم يسعنا آنذاك إلا أن سبيلا يبعد عنا شروره وآثامه (الاستعمار***

الفرنسي)، فاتفقنا مع زملائنا الذين درسوا معنا بجامعة القرويين بفاس أن يسعوا لنا في الحصول على اللجوء السياسي من الحكومة الاسبانية..." [19]

وكغيرها من العائلات الجزائرية، فان عائلة القباطي عانت من ويلات الحرب العالمية الثانية منذ بدايتها، لذا قرر **محمد القباطي** التوجه إلى مصر كمنفى اختياري برفقة والده[20] وأخيه، وبعد مطاردة فاشلة من طرف إحدى سفن القوات البحرية الاستعمارية تمكن من النزول بمرسى مليلية، ولكن تحت ضغط الحكومة الفرنسية، رفضت السلطات الاسبانية منحه حق اللجوء السياسي، فعاد إلى تلمسان ليتابع قضائيا[21]، ويروي لنا الشيخ **محمد القباطي** أطوار محاكمته برفقة أخيه فيقول: ***"قدمنا أنفسنا أمام رئيس دائرة تلمسان، فسألنا لماذا جئتم عندي ولم تذهبوا إلى الغزوات؟، فقلنا له قصدناك لعلمنا بعدالتك، وقد كان لهذا الجواب أثر جميل جدا فقد أنقذنا من عذاب اليم... وفي المساء جمعنا مع رئيس الشرطة السرية وأثناء المحاكمة صرح رئيس الدائرة أن لهؤلاء الشبان العذر فيما ارتكبوه، فقد كانوا يعيشون الجحيم بسبب تعسف الإدارة المحلية"***.[22]

وقد يعود هذا التعاطف الذي أبداه ممثل إدارة الاحتلال في تلمسان تجاه الأخوين **القباطي** إلى تسلط الإدارة المحلية من جهة، ومن جهة أخرى فان الحرب العالمية الثانية قد ضاعفت خطورة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للجزائريين لاسيما في الأرياف، فاختفت المواد الأساسية مثل السكر، الزيت الصابون، والبن مما أدى إلى تقنين توزيعها وانتشرت المضاربة حيث شهد شهر سبتمبر من سنة 1939 ارتفاعا خياليا للأسعار بسبب كثرة الطلب

ونتيجة لهذه الظروف المعيشية الصعبة انتشرت الأمراض، ولاسيما الأمراض التنفسية ومرض الحمى الصفراء[23] .

وبعد انقضاء مدة الحبس بأسبوعين، نفي الشيخ **القباطي** إلى سوقر(ولاية تيارت غرب الجزائر)وفرضت عليه الإقامة الجبرية، ورغم ذلك فان الاتصال بينه وبين أفراد عائلته ظل قائما، حيث أشارت مصلحة مراقبة الرسائل أن **محمد القباطي** تلقى رسالة من والده بتاريخ 06 ماي 1943 أطلعه فيها على الأحوال المعيشية السيئة لأخيه **عبد الحميد** في حاسي الغلة (ولاية عين تموشنت غرب الجزائر) بسبب الركود الاقتصادي في الجزائر الذي أدى إلى انتشار البطالة، وكرد على رسالة والده كتب الشيخ **محمد** القباطي خطابا لأخيه بتاريخ 10 ماي 1943 وعده فيه بالبحث له عن وظيفة معلم في المدرسة الجديدة لنادي الشبيبة بتيارت، غير أن **عبد الحميد القباطي** تمكن من الالتحاق بمدرسة الفلاح[24] بوهران[25].

ومع اقتراب الحرب العالمية الثانية على نهايتها رفعت السلطات الاستعمارية عن **محمد القباطي** الإقامة الجبرية، فزار مغنية وهناك اتصل بنخبة من الحركة الإصلاحية حيث اقترح عليهم تأسيس مدرسة تابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وفي ظرف خمس سنوات كونت المدرسة رجالا سيساهمون في مسيرة الثورة التحريرية مثل **أحمد بن بلة**، ومحمد خميستي، بالإضافة إلى الأديب **محمد مصايف**[26]، والمفسر الشيخ **عبد الرزاق منصوري**، وعن سر نجاح المدرسة في تكوين هذه الشخصيات في وقت وجيز يقول صاحب كتاب تأملات في الإنسانية:"***إن ذلك يعود إلى دراستهم للتاريخ الإسلامي بداية من سيرة الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام إلى امتداد طويل...***"[27] .

وعند قيام الثورة التحريرية أعلنت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عن مساندتها للكفاح الجزائري منذ البداية، وما يدل على ذلك بيان التأييد الصادر عن مكتبها بالقاهرة الذي نشرته الصحافة المصرية وغير المصرية بتاريخ 03 نوفمبر 1954جاء فيه:"***حياكم الله أيها الثائرون الأبطال وبارك في جهادكم، وأمدكم بنصره، وكتب ميتكم في الشهداء الأبرار، وحيكم في عباده الأحرار...***"[28]، وفي نفس الاتجاه سار موقف نواب رئيس الجمعية في الجزائر، حيث صرح الشيخ **محمد خير الدين** قائلا:" ... ***في أثناء الاجتماع الذي انعقد في دورة عادية بتاريخ فاتح نوفمبر بدار الطلبة بقسنطينة دخل إلينا موظف وبيده جريدة البرقية(La dépêche)، ومنها علمنا أول أخبار الثورة، وعليه دعوت كلا من الشيخ العباس بن الشيخ حسين والأستاذ إبراهيم مزهودي، وأكدت لهما علينا أن نكون متجاوبين مع الثورة تجاوبا كليا وعلينا أن نستعد من الآن للمساهمة فيها بكل ما تطلبه منا...***"[29].

ونظرا لموقفها المؤيد للكفاح المسلح ضد الاستعمار من جهة، وترك حرية انضمام مناضليها لجبهة التحرير الوطني من جهة أخرى، قامت السلطات الاستعمارية بغلق المدارس التابعة للجمعية، ومنها مدرسة التربية والتعليم الحرة بسيدي بلعباس التي كان يديرها الشيخ **محمد القباطي** بدعوة التحريض وتهديد أمن المستعمرة، مما أدى بأتباعها إلى الاندماج في صفوف الثورة المسلحة، فمنهم من اعتقل وعذب، ومنهم من استشهد وذكر لنا الشيخ في رواته انه نتيجة غرسه روح الوطنية في نفوس تلامذته فقد التحق بعضهم بالثورة، وفي مقدمتهم **عفان فاطمة**،و**صورية بن ديمراد** حتى عرف شيخنا عند البعض فيما بعد **بأب الشهداء**[30].

وبسبب نضاله الوطني ألقت سلطات الاحتلال القبض على **القباطي** في سنة 1956، ووضعته في معتقل سان لو**Saint Leu**ببطيوة (أرزيو)، وفي السنة الموالية أطلق سراحه، فقرر عبور الأسلاك الشائكة بالحدود الغربية ليلتحق بالقاعدة الخلفية للثورة بالمغرب الأقصى، حيث كلفته قيادة الثورة هناك بتدريس المجاهدين في مدينة العرائش، ثم عينته جبهة التحرير الوطني مسؤولا عن الاتصالات الرسمية بين الجزائر والمغرب من أجل دعم الثورة بمدينة تطوان إلى غاية الاستقلال[31].

4– جهود الشيخ محمد القباطي في ترسيخ الفكر الاصلاحي بسيدي بلعباس:

إن إهتمام **محمد القباطي** بالمجال التربوي يعود إلى تجسيد تعاليم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من أجل النهوض بالمجتمع عقائديا، ثقافيا وسياسيا، ومحاربة الآفات الاجتماعية المتفشية فيه كالجهل في شقيه الديني والتربوي، وذلك للمحافظة على دعائم الشخصية الجزائرية القائمة على ركيزتين أساسيتين وهما العروبة والإسلام، وهو ما تضمنته كلمة الشيخ البشير الإبراهيمي الموجهة إلى المعلمين، حيث قال:" ***إن حاجتنا إليكم هي أن تنقذوا هذا الجيل الناشئ من الأمية التي ضربت بالشلل على مواهب آبائهم، وكانت نقصا لا يعوض إنسانيتهم، ثم كانت سببا في كل ما يعانونه من شقاء، وأن تحيوا فيهم العروبة، وأن تربونهم على الفضيلة الإسلامية، وأن تزرعوا في نفوسهم حب العلم والمعلم...***"[32]

وعلى هذا الأساس، حضر الشيخ محمد القباطي اجتماعا لأساتذة التعليم بمدرسة الفلاح بوهران سنة 1948، برئاسة الشيخ محمد خير الدين نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين، وحسب الشيخ، فإن اللقاء تميز بمناقشات هامة تمحورت حول عدة مسائل بخصوص

الجوانب التربوية وعلاقتها بالحركة الإصلاحية، كما أن الاجتماع كان مثمرا، حيث جعل كل معلم يعود إلى بلدته محملا بالنشاط والإخلاص[33]، ولهذا كلفت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشيخ **القباطي** في مطلع الخمسينات بتسيير شؤون مدرسة التربية والتعليم الحرة بسيدي بلعباس، حيث استقر بها إلى أن وافته المنية، وعن تعلقه بالمدينة قال:" ***أعجبت كثيرا بحماس شباب مدينة بلعباس وبمواقفه المشرقة منذ البداية ...***"[34]، وقد يعود ذلك النشاط الشبابي في هذه الفترة في سيدي بلعباس إلى تعدد الفروع الكشفية مثل فوج النجمة للرواد المسلمين الجزائريين، وفوج الأمل لمدينة سيدي بلعباس بقيادة جميل بن دبمراد كمحافظ محلي، ومحمد بن داودي كرئيس للفوج[35]. ولم يقتصر عمله على تدريس الناشئة فقط، بل زاول نشاطه الدعوي تجاه الكبار أيضا بطريقة الوعظ والإرشاد وخطب الجمعة، وإقامة المسرحيات التي تبين غبن الشعب الجزائري داخل المؤسسة وخارجها، وعند إقامة الأفراح وتلبية الدعوات، قصد تثقيف شرائح المجتمع وتنوير العقول علميا وسياسيا للحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية في بعدها العربي الإسلامي و المغاربي.

وفي ذات السياق يروي لنا الشيخ **محمد القباطي** حادثة طريفة وقعت له أثناء إلقائه خطبة الجمعة في صائفة 1953، فيقول: "*... **أثناء خطبة الجمعة الموالية لتاريخ نفي محمد الخامس من طرف سلطات الاحتلال الفرنسي في20 أوت سنة 1953 كنت قد حضرت خطبة حول جمال الدين الأفغاني أب الحركة الإصلاحية، وعندما صعدت إلى المنبر، وبدلا من أن أحدث المصلين عنه وجدت نفسي أردد عليهم مجموعة من الأسئلة،أيها الإخوة أتدرون من ضحى بملكه في سبيل الوطن؟أتدرون من ضحى بنعيم الحياة ولذاتها في سبيل الوطن؟ ذلكم هو محمد الخامس ...*"[36] ، لقد عكست لنا هذه الحادثة الدور الإصلاحي

والنشاط السياسي للشيخ **محمد القباطي** وفق نهج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المساند للحركات التحررية الاستقلالية والإصلاحية والطلابية في الأقطار المغاربية، حيث اعتبرت الجمعية خلع السلطان **محمد الخامس** إهانة للملك وللشعب المغربي، ذلك ما عبر عنه رئيسها قائلا:" ... ***وحلت المحنة بالمغرب الأقصى، وجاءت فرنسا بالخاطئة فأهانت ملكا، وهددت عرشا، وأذلت شعبا، وانتهكت حرمات، واعتقلت أحرارا...***""[37].

وعلى هذا الأساس لم يسلم الفكر الإصلاحي من تعسف إدارة الاحتلال في الجزائر عامة، وفي سيدي بلعباس خاصة، نظرا لخصوصية المدينة، حيث اعتبرت مدينة استعمارية بالدرجة الأولى، إذ لم يكن سكانها من الجزائريين يشكلون الطاقة الديمغرافية الموازنة للفرنسيين، ففي سنة 1954 لم يكن أهالي المدينة يمثلون سوى ثلث مجموع الساكنة أي ما يعادل عشرين ألف نسمة، كما أن منطقة سيدي بلعباس كانت مركزا للفيف الأجنبي، والجيش الفرنسي بجميع تشكيلاته[38] ، ذلك ما أعاق تغلغل الحركة الإصلاحية في المنطقة .

بالإضافة إلى تلك العوائق، واجه الفكر الإصلاحي في المنطقة الطرقيين على غرار الطريقة الهبرية، والعلاوية، والتجانية ، كما لوحظ خلال فترة الخمسينات كثُرت المدارس القرآنية ومن أبرز شيوخها سيد أحمد بناعوم، الشيخ بن كابوسي لعلاسي البشير زواوي، وغيرهم، ومن الغرابة بمكان أن هذا الحشد الكبير الذي سعت إدارة الاحتلال على تشجيعه راجع بالدرجة الأولى إلى ضرب النشاط التعليمي لشيوخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في منطقة سيدي بلعباس[39]، غير أن المدارس الحرة التي فتحتها جمعية العلماء المسلمين وجدت في هؤلاء الطلبة الذين تخرجوا من الكتاتيب القرآنية أطرا طورت بهم مناهجها.

وعلى الرغم من هذه الظروف، فإن الشيخ محمد القباطي واصل نشاطه خدمة للفكر الإصلاحي في سيدي بلعباس بإلقاء المحاضرات، وأداء خطبة الجمعة، والقيام بدروس الوعظ والإرشاد بعدما أوكلت إليه إدارة المدرسة في سنة 1954 بمساعدة كل من عبدالقادر التيجاني، عمر بوناب، وعزالدين محمد[40] غاية قيام الثورة التحريرية.

صفوة القول أن الشيخ محمد القباطي لعب دورا بارزا في ترسيخ الفكر الإصلاحي في منطقة سيدي بلعباس بنشره للوعي في فئات المجتمع البلعباسي التي نهلت من الشيخ حب الله وحب الوطن، فكان منهم من قدم النفس والنفيس من اجل تحرير الوطن.

الخاتمة

إن الدراسة المتواضعة التي قدمناها لا تفي حق الشيخ **محمد القباطي**، ولا تكفي عرضا لحياته النضالية في الفكر والإصلاح، والسياسة، وهو الذي أفنى حياته في سبيل صلاح مجتمعه حتى لو كلفه ذلك حياته.ومن المجاهدين من شارك في الثورة التحريرية، فمنهم من كافح ضد فرنسا طيلة سنوات الثورة، ومنهم من شارك بعضها، ولكن الشيخ القباطي ممن حبّاه الله بمشاركة طويلة قل مثلها، تبتدئ من السنوات الأولى لنشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين رفقة والده وبني عمومته إلى نضاله في صفوف الحركة الوطنية أثناء الحرب العالمية الثانية، وصولا إلى الثورة التحريرية والاستقلال.

الـــهوامش

1–هو محمد ولد البشير من مواليد 1880 بالغزوات حفظ القرآن الكريم في مسقط رأسه أولاد زيري مما أهله لآن يمتهن تعليم القرآن، حيث بنى مسجدا صغيرا بالمنطقة، عرف بتأثيره الوطني في محيط عائلته.

2-محمد القباطي، تأملات في الإنسانية، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر،2008، ص11.
3-محمد القباطي، حياتي، منشورات وزارة الثقافة، المكتبة الرئيسية للمطالعة، سيدي بلعباس، د ت، ص03.
4- محمد بلحاج، **المسيرة النضالية للشيخ عبد الحميد القباطي**، مجلة عصور، ع 28-29 جانفي- جوان 2016، مخبر البحث التاريخي وتراجم، جامعة وهران، ص255.
5-إبراهيم مهديد، الدور الإصلاحي والنشاط السياسي الشيخ محمد البشير الابراهيمي على نهج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فيما بين 1931-1944، دار القدس العربي، وهران، 2015، ص ص 21-22.
6-أبو القاسم سعدالله، الحركة الوطنية الجزائرية، 1930-1945، ج3، ط3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 90.
8-إبراهيم مهديد، المرجع السابق، ص 22.
9-إبراهيم مهديد، الحركة الوطنية في القطاع الوهراني فيما بين 1919-1939، دار القدس، وهران، 2015، ص271.
10-آمال علوان، دور الحركة الكشفية الإسلامية في نشاط الحركة الوطنية الجزائرية بالغرب الجزائري ما بين 1936-1954، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، 2008، ص 26.
11- يذكر احمد الأزرق في كتابه النهضة الثقافية الأصيلة في مدينة سيدي بلعباس أن الأديب الهادي السنوسي لقي ترحيبا شعبيا من طرف البادسيين في سيدي بلعباس، حيث واصل نشاطه بجدية و لم يحد عنه إلا عندما استلم الوظيفة التي أغرته في الإذاعة الخاضعة للاحتلال، غير أن الشيخ **محمد خير الدين** ذكر في مذكراته الجزء الأول منها أن **الهدي السنوسي** أوفدته الجمعية إلى فرنسا في إطار مشروعها الدعوي والإصلاحي، وانه لم يلتحق بالإذاعة إلا في الخمسينات.
12-نادي النجاح بحي **الأمير عبد القادر** في بناية عائلة في نهج الإخوة الثلاثة عميروش الذي فتح أبوابه في سنة 1935 لإحياء التراث العربي الإسلامي، وفي سنة 1937 تحول مقر النادي إلى بناية عائلة رايس في شارع **علي بن أبي طالب** حيث واصل **الشيخ الهادي السنوسي** نشاطه التربوي والدعوي (ينظر: الأزرق احمد، النهضة الثقافية الأصيلة في مدينة سيدي بلعباس، ط3، مطبعة تومي، سيدي بلعباس، 2014، ص ص 27-29.)
13-إبراهيم مهديد، الدور...، المرجع السابق، ص ص 23-24.
14-شهادة شفوية أدلى بها الشيخ محمد القباطي في السنوات الأخيرة من حياته لفرقة بحث تابعة لمتحف المجاهد بسيدي بلعباس، وقد تحصلنا على نسخة منها في قرص مضغوط.

15-وحسب نفس الشهادة فان المدرسة افتتحت في سنة 1945 بحضور الشيخ البشير الإبراهيمي .

16-خالد بوهند، بحوث وقراءات في تاريخ الجزائر العام، ج1، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2005، ص ص 26-27.

17-بلحاج محمد، المرجع السابق، ص 256.

18-جريدة البصائر، العدد 91/ 17 ديسمبر 1937.

19-المصدر نفسه.

20-محمد القباطي، حياتي، المصدر السابق، ص 03.[1]

21-تشير المصادر الأرشيفية أن والد **محمد القباطي** في هذه الفترة (بداية الحرب العالمية الثانية) كان قد اعتقل ووضع في الإقامة الجبرية بجنين بورزق في عين الصفراء، كما أن نفس المصادر ذكرت أن محاولة التسلل إلى ماليليه دبرها كل من **محمد القباطي الملقب ب (لكحل)** وأخيه **البشير** دون ذكر اسم والدهما (ينظر: محمد بلحاج المرجع السابق، ص ص 259-268.)، وما يدل على ذلك أن ممثل إدارة الاحتلال المتصرف الإداري لتلمسان وأثناء محاكمتهما وصف المحكومين بالشبان حيث قال لقائد شرطة الاحتلال "**إن لهؤلاء الشبان العذر فيما ارتكبوه، فقد كانوا يعيشون الجحيم مع إدارتهم المحلية** " في حين ان والدهما كان قد تجاوز عمره واحد وستون عاما، اما الدليل الثالث الذي ينفي وجود الوالد معهما وهو ما قاله **الشيخ محمد القباطي** بخصوص الحكم عليه وعلى أخيه دون ذكر والده:"**حكم عليا وعلى أخي بثمانية أشهر سجنا وعلى سائق السفينة بسنتين**"(ينظر: محمد القباطي، حياتي، المصدر السابق ص 04)

22-خالد بوهند، المرجع السابق، ص ص 203-204.

23-Nora (Benallègue-Chaouia), **Algérie Mouvement Ouvrier Et Question Nationale 1919-1954**, Office Des Publication Universitaire, Alger, 2004, Pp223-226.

24-خلال زيارة الشيخ **عبد الحميد بن باديس** رفقة كل من الشيخين **البشير الإبراهيمي ومصطفى بن حلوش** بتاريخ 17فبراير 1938لجمعية دار الفلاح بوهران،ألقى رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين خطابا جاء فيه: "**إن الحياة تنبعث من المدارس، فيجب أن تكون المدارس أول ما نهتم به...**"، وعلى اثر ذلك جمع الحاضرون ثلاثون ألف فرنك فتم شراء مقر الجمعية الذي افتتحت به أيضا مدرسة الفلاح (ينظر: محمد الحسن فضلاء، المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر (القطاع الوهراني مدرسة التهذيب في ثمانية أعوام 1954-1962)، ج2، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2014، ص- ص 51-52.)

25-محمد بلحاج، المرجع السابق، ص 260.

26–من مواليد عام 1923 بمنطقة مغنية (ولاية تلمسان غرب الجزائر) التحق في البداية بكتاب القرية، فحفظ القرآن الكريم، وتعلم قواعد النحو و الصرف ومبادئ الشريعة الإسلامية في مدرسة جمعية المسلمين الجزائريين ب مغنية، ومنها انتقل إلى جامع القرويين بمدينة فاس المغربية حيث مكث فيها ثلاث سنوات (1946–1949)، ليعود إلى مسقط رأسه في بداية الخمسينات من القرن العشرين لإدارة مدرسة حرة بمغنية ، وبعد اندلاع الثورة في 1954 ألقت سلطات الاحتلال القبض عليه، ثم أخلت سبيله في سنة 1955، وأمام صعوبة الظروف المعيشية هاجر إلى فرنسا لم يعد إلا بعد الاستقلال حيث التحق بجامعة الجزائر في سنة 1965، وبعد مسيرة حافلة بالنشاط السياسي والعلمي وافته المنية بالجزائر في 20 جانفي1987 (ينظر : شريط أحمد شريط وآخرون، معجم أعلام النقد العربي في القرن العشرين، مخبر الآداب المقارن والعام، جامعة باجي مختار، عنابة، د.ت، ص 366.)

27– محمد القباطي، حياتي، المصدر السابق، ص 05

28–الفضيل الورتلاني، الجزائر الثائرة، دار الهدى، عين مليلة (الجزائر)، 2009، ص 170.

29– محمد الطاهر فضلاء، التحريف والتزييف في كتاب حياة كفاح، دار البعث للطباعة والنشر قسنطينة، 1982، ص ص 113–114.

30– محمد القباطي، الشهادة الشفوية السابقة.

31– محمد القباطي، حياتي، المصدر السابق، ص 05.

32– محمد البشير الإبراهيمي، آثار الامام محمد البشير الإبراهيمي (الجزء الثالث عيون البصائر)، تقديم الدكتور احمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص 268.

33– توفيق، برنو، **أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالغرب الجزائري الشيخ محمد القباطي أنموذجا (1907–2010)**، مجلة العبر للدراسات التاريخية والآثرية، المجلد الأول، العدد الثاني (02)، سبتمبر 2018، ص 409.

34– محمد القباطي، الرواية الشفوية السابقة.

35– تأسس الفوج الأول في سنة 1941 بمبادرة شخصية لمجموعة من شباب مدينة سيدي بلعباس يقودهم **عبد القادر بن أحمد**، أما الثاني فهو من أهم أفواج المنطقة تأسس في نفس السنة بقيادة مجموعة من الشبان وعلى رأسهم **جميل بن ديمراد، محمد بن داودي وعطار بلعباس** (ينظر: أمال علوان، المرجع السابق، ص ص 97-105

36–محمد القباطي، الشهادة الشفوية السابقة.

37-محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ص 423.

38- سيد أحمد، بلبوري، **محطات تاريخية لناحية سيدي بلعباس إبان الثورة**، الملتقى الوطني حول تاريخ سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية 1830-1962، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، سيدي بلعباس، 2001، ص 143.

39- حنيفي هلايلي، **التعليم في منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية 1857–1954**، مجلة دراسات أدبية وإنسانية، العدد 3، أفريل 2005، مخبر الدراسات الأدبية والإنسانية، جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية، ص 156.

40- حنيفي هلايلي ، المرجع السابق، ص 158.